الكنائس الصغرى

المتروبوليت سابا (اسبر)

تُعتبر العائلةُ الكنيسةَ الأولى للمؤمن، ففيها يتعلّم أولى خطوات الإيمان والتقوى ومحبّة الله والفضيلة. والكنيسة الكبرى، كنيسة الرعيّة، ما هي إلا مجموع هذه الكنائس الصغرى. وبقدر ما تكون كنائسنا البيتيّة أمينة في عيش إيمانها، فإنّها تقدّم رجالاً ونساءً مملوئين بالمحبّة والغَيرة والتقوى، وتالياً تتقوّى كنيسة الله وتُنتج قدّيسين وقدّيسات، وشهوداً، عاملين وعاملات، غيورين وملتزمين في حقلي الله والمجتمع.

يختبر المؤمنون في الكنيسة شركة الإيمان الواحد، التي تجعلهم جسداً واحداً، أي عائلة واحدة. يُفترض أن يعي المؤمنون قرابتهم الروحيّة بحدّة ورهافة، وأن يعيشوها، إذ إنّ المسيح المُعطى لهم في سرّ الإفخارستيّا، يقيم فيما بينهم رابطةً أقوى من رابطة الدم والقبيلة والعشيرة.

شركة المؤمنين هذه يجب أن تظهر وتُعاش حقيقةً في ما بينهم. وإذا ما خدشت الإساءة هذه الشركة، يطلب الإنجيل الامتناع عن الاقتراب من الكأس المقدّسة، والتوقف عن تقديم الذبيحة، حتّى تعاد هذه الشركة. "وإذا كنتَ تقدِّم قربانك إلى المذبح وتذكّرت هناك أنّ لأخيك شيئاً عليك، فاترك قربانك عند المذبح هناك، واذهب أوّلاً وصالح أخاك، ثمّ تعال وقدِّم قربانك" (متى٥/٢٣-٢٤).

من هنا، في التعليم الرعوي، يأتي مفهوم الرعيّة، القائل بمعبدٍ واحد لمجموعةٍ من المؤمنين، الذين يتواجدون في منطقة واحدة. إذ حين يصلّي المؤمن في كنيسة رعيّته لا بدّ له من أن يقيم روابط وعلاقات روحيّة مع أبنائها. التزامه برعيّته يقوّي التزامه تجاه إخوته وأخواته فيها، وتالياً ينمّي حسّه الكنسي- بأهميّة الشركة المسيحيّة، ومسؤوليّته تجاه إخوة وأخوات له، ومسؤوليّتهم تجاهه. كما يُفترض أن تصير هذه الخبرة سبيلاً لمدّ الأخوّة لتشمل كلّ البشر.

هذا الحسّ ضعيف في الواقع. ومن أسباب ضعفه عدم ممارسة جميع المؤمنين الصلاة الجماعيّة بفهم، واكتفاء المصلّين منها بتتميم ما يعتبرونه" واجبهم" الديني، وغياب الوعي الروحي بتجسيد هذا الإيمان وهذه الشركة في الحياة اليوميّة. كما أنّ طغيان روح

الطقوسـيّة والاحتفالات على حسـاب العيش الشـخصيّ ـ للشـركة الروحيّة، المطلوب وجودها بين المؤمن والله، وبينه وبين سـائر المؤمنين، وتالياً، بينه وبين باقي البشـر، يساهم في غياب ذاك الوعي الروحي.

من هنا تبرز أهميّة تشـكيل جماعات صـغيرة تتألّف من بضـع عائلات، تشـترك في همّ أو هدف أو خدمة واحدة. هي جماعات صـلاة بالدرجة الأولى، ومن ثمّ تلتقي على خدمة إنسـانيّة أو روحيّة محدّدة. هؤلاء إذ يجمعهم الهمّ الواحد، المطلوب تجسـيده في حياتهم، تتقوّى العلاقات في ما بينهم، وتزداد عمقاً، فيختبرون، إن كانوا مؤسَّسـين على صدق عيش البعد الروحي للإنجيل، قرابتهم الروحيّة ويتقوّون بها.

يُعَدّ التشـديد على اختبار هذه الشركة في فرقة صـغيرة، أهمّ ما جاءت به حركة الشـبيبة الأرثوذكسـيّة الأنطاكيّة[1]. قامت الحركة على عيش الشـركة الكنسـية في ما بين الإخوة، فكانت للكثيرين سـبيلاً لاكتشـاف الشركة الكنسـيّة العامّة. فاختبر الكثيرون، ممّن عاشـوا في الحركة، حلاوة الشـركة الكنسـيّة وجمالها. وشـاركوا، كالمسـيحيّين الأوائل، في حمل أثقال بعضهم بعضاً. وفهموا فعليّاً، لا نظريّاً، كيف تكون الكنيسة عائلة الله حقّاً.

في زمننا، الذي يُعلي روح الفرديّة على جميع القيم، يعيش الإنسـان، ضـمن المجتمع، في وحدة قاتلة. له زملاء في العمل أو الدراسـة أو الجيرة، لكن أكثر ما يفتقده، هو العلاقة المتينة القلبيّة مع أشخاص آخرين؛ العلاقة القائمة على أسس روحيّة، يشعر المرء فيها بالجماعة التي تسـنده، ويشـارك هو في مسـاندتها. حتّى الصـداقة الأصـيلة باتت نادرة في عالمنا المعاصر. يسـتعمل بعض علماء الاجتماع عبارة "العزلة وسـط الجمهور" لكي يصفوا الوحدة، التي يعاني منها الإنسان المعاصر.

في سـبعينيّات القرن الماضي، ذكرت جريدة البرافدا الشـيوعيّة، في إطار تحرٍّ واسـع حول أسـباب عودة الروس إلى الكنيسـة، بعد بلوغهم سـن التقاعد، هذه القصّـة. أُحيل مدير معمل كبير إلى التقاعد، بعد حصـوله على التكريم والمكافأة، وعاد ليحيا وحده. كان الطلاق من زوجته قد تمّ قبل تقاعده بعدّة سـنوات، وابناه يعملان في مناطق بعيدة عن سـكناه. فبدأ يتردّد على مقهى الحيّ، يقرأ الجريدة، ويرتشـف القهوة، وعلامات الكآبة

[1] تأسست حركة الشبيبة الأرذكسية سنة ١٩٤٢ وأعطت للكنيسة حيويتها مجدداً حينذاك وما تزال تلعب دوراً كنسياً رائداً حتى اليوم.

والحزن تزداد يوماً فيوماً على وجهه. لاحظه رجل متقاعد مثله، فسأله عن سبب شروده وحزنه، فصارحه بالوحدة التي يعاني. فقال له: "تعال إلى الكنيسة ولن تبقَ وحيداً." وهذا ما حدث. إذ أحاطه بعض المصلّين بالاهتمام وأقاموا علاقة صداقة معه.

يطلب الكثيرون هذا الاهتمام من الكنيسة، ويحصرونه بشخص الكاهن، متناسين أنّ محبّتهم لربّهم تُلزِمهم بمحبّة بعضهم أيضاً، وتجسيدها في رعاية حقيقيّة لبعضهم بعضاً. ليس كل شيء مطلوباً من الكاهن وحده وإن كان هو المسؤول الأول. ليست الكنيسة مزرعة شخصيّة له، بل هي كنيسة المسيح وجميع أبنائه. وأبناء الرعية يشاركون الكاهن في إتمام الخدمات التعليمية والرعويّة والاجتماعيّة والإنسانيّة.

بات سعي المؤمنين إلى تشكيل جماعات صغيرة، تشترك إلى جانب الإيمان، في همّ واحد، وتسعى إلى التعاون في ما بينها من أجل تحقيقه، أمراً ضرورياً وملحّاً. ما أكثر الحاجات والخدمات المطلوبة، خاصّة في هذا الزمن العصيب!!

أنتَ تذبل إنْ بقيت في همّك، لكنّك تخضوضر وتزهر، إن انضممت إلى إخوة يشاركونك إيّاه، فتعاونت وإيّاهم، بإرشاد أب روحي، إلى جلب الفرح لغيركم. إذ ذاك ستفرحون بمقدار ما تُفْرِحون الآخرين . تختبر آنذاك دفء الشركة، وفرح العطاء.

كم نحتاج إلى تشكيل ورشات صلاة وعمل، تبثّ فرح قيامة المسيح، في هذا العالم المعذّب. ورشات قائمة على الصلاة والتأمّل في كلمة الله، والسعي إلى تجسيدها، في الحياة اليوميّة، وفي المجتمع، الذي يعيشون فيه، وتجسيدها، قبل أيّ شيء آخر، في حياتهم الشخصيّة.

هذه "الكنائس الصغرى،" إن وجدت، ستصير خميرة، لحضورٍ للمسيح أكثر فعاليّة، في حياتنا وعائلاتنا ومجتمعنا.